لغة شوقي

للأستاذ عز الدين التنوخي

بلغ في القرن الماضي انحطاط البيان العربي ، شعره ونثره ، أسفل دركاته في جميع الأقطار العربية ، ولولا من تداركه من أمراء الشعر وزعماء النثر الذين تعهدوا روضه بالحرث والتشذيب والتهذيب لما اكتست لغتنا حلتها العصرية الزاهية ، ولما عادت إلى مكانتها السالفة ، فعدت من اللغات الحية السامية ، ولما ظهر في مصر والشام والعراق من الشعراء المتصرفين في فنون الشعر الحي ، والكتاب الأبيناء من أعانوا من تقدمهم في الأخذ بناصر هذه اللغة العذبة المباركة فأعادوا إليها شبابها بما أحيوه من آدابها ، وإلا فإن سخنة عين الأدب ما كان عليه البيان منثوره ومنظومه قبل الشيخ محمد عبده وإبراهيم المويلحي والبارودي وصبري وحافظ وشوقي : تعابير سوقية مبتذلة ، وكلف بالصناعة وشغف بالتصنع ، وألفاظ لا منخولة ولا معسولة ، ومعانٍ سقيمة مرددة مملولة ، والغالب مع ذلك على النثر انطباعه على سجع ليس تحته رجع ، ولنا أن نعتبر البارودي هو المهلهل الثاني ، لأن الأول قد هلهل الشعر وقصّده ، والثاني قد أنعشه وجدده ، وعرض للناس أسلوبه الجزل المستقطر من أساليب البحتري والمتنبي وأبي تمام والرضي وصريع الغواني وسائر من اختار لهم في مختاراته من حذاق القريض ورواض القوافي ، وقد حذا صبري حذوه في تنقيح الشعر وتنويقه ، إلا أنه قد فاقه بتقصيره وترقيقه ، وقد بزاهما حافظ وأخذ إخذهما في شد أسر الشعر وتجويد حبكه ، وأما راحلنا الكريم فقد كان

بادي الرأي يخشب الشعر في شبيبته ، بينا كان حافظ يبالغ في تنقيحه وتحكيكه ، فكان المولعون يومئذ بصناعة الشعر يفضلون في ذلك حافظاً على قرينه شوقي ، وأما المولعون بقوة الشاعرية وسمو المعنى ، وسعة الخيال وخلود الحكمة والأمثال وبعد الشعر عن التعسف وقربه من الطبع والطلاوة فكانوا في ذلك كله يفضلون شوقي على خدينه ، وكأن لسان حالهم يقول :

إذا صح أن شوقياً يخشب الشعر وحافظاً ينقحه ، فان خشب شوقي خير من تنقيح حافظ ، كما قيل مثل ذلك في جرير والفرزدق ؛ والحقيقة أن شوقي ما كان يخشب الشعر في شبيبته إلا لسرعة خاطره ، وفيض قريحته التي كانت تحمله على قول الشعر على البديهة لا يكدّ فيه طبعاً ولا يسهر عليه جفناً ، مع أنا رأيناه بعد كهولته يعنى بتنقيح لغة شعره حتى أوشك أن يجاري في ذلك أخاه حافظاً ، ذلك الذي كاد لفرط تنقيحه وتحكيكه للشعر يشبه الحطيئة الذي يقول : « خير الشعر الحولي المنقح المحكك » ، وبذلك حق لشوقي أن يقلد إمارة الشعر بمبناه ومعناه معاً ، وقد كان العرب كما ذهب إليه صاحب الوساطة « إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعباً بالتجنيس والمطابقة . ولا تحفل بالابداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض . » وشوقي في الكثير من ذلك وبوفرة إنتاجه ، وازدياد شعره شباباً وفتوة بازدياده شيخوخة وضعف قوة يتفوق على سائر المعاصرين .

تخرج شوقي في اللغة على الأستاذ النابغة المرصفي صاحب الوسيلة ، وكان أحب الشعراء إليه — كما أجاب به سائلاً — هو المتنبي قال ما نصه : « وأنا أعده أستاذي الأول ثم يلي المتنبي ابن الرومي ، وأحب شعراء الغرب إليّ نكتور هوغو ودي موسه الذي لا أمل القراءة فيه » ؛ ومن

ذلك نستنتج أن لغة أمير الشعراء قد تأثرت كل التأثر بلغة نبي الشعراء أبي الطيب المتنبي ، الذي كان يذكره في شعره قائلاً :

ولو مشت بي الليالي تحت كوكبه غادرت أحمد نسياً وابن حمدانا

وتأثرت بعده بلغة ابن الرومي ، ثم بلغة من عارضهم من فحولة الشعر وصاغة القريض كالبحتري الذي عارضه في سينيته ، والحصريّ في داليته والأبوصيري في البردة والهمزية وابن زيدون في أندلسيته النونية ، وأمثالهم ممن يمر كلامهم العذب على الآذان مر الصبا على عذبات الأغصان ، وإنما تأثرت لغة شوقي بمعارضة قلائدهم المشهورة لأن المعارضة تدعو إلى المضارعة ، فان كان المعارَض جيد الحبك نقيّ المستشف اقتبس المعارِض ذلك منه طبعاً وارتاض على طريقته ، وإن كان المعارَض رديء السبك ، ضعيف التأليف متجافياً عن مضاجع الرقة ومتجانفاً عن مذاهب السلاسة أثرت لغته بمقدار زمن المضارعة والتقليد ، ذلك أن العبارة السقيمة أعلق بالنفس كما ذهب إليه الجاحظ من العبارة القويمة ، وأسهل مراساً وأهون اقتياساً ، والحقيقة أن المتأمل في شعر شوقي وأسلوبه وتعبيره وتركيبه ، يوقن أنه خلاصة أساليب فحولة القريض ، هذا في الشعر ، وأما النثر فقد كان يعجبه أسلوب ابن خلدون كما يظهر ذلك من شعره ، وتروقه لغة المبرد في كامله ، قال في تحليته لكتاب فتح مصر الحديث لحافظ عوض :

لغة الكامل في استرساله وابن خلدون إذا سح وصابا

ولغة المبرد امتازت بمتانتها وابن خلدون ببلاوتها ، فشوقي على ذلك تعجبه لغة المجودين من أمراء الصناعتين وإن كان لا يحسن استرسالهم إلى تكلف في سجع يرد الطبع كثيراً منه ، ولا يعجب بلغاء الكتاب المترسلين .

إن الشعر على مذهب شوقي لا يسمى شعراً ما لم يكن عاطفة وحكمة وذكرى ، فاذا ما نحن حللنا شعر ديوانه ، وأنعمنا النظر في أسلوب تفكيره وبيانه ، حكمنا بأن ذكراه وعاطفته الذاتية في شعره الوجداني قد قويتا فيه بتأثره بشعر أبي تمام والرضي وابن الرومي والبحتري وبشار

ومهار وأضرابهم ، وأن حكمته التي أكثر منها في شعره ، وكثيراً من أساليب بيانه قد احتذى فيها طريقة أستاذه الأول أبي الطيب ، كما قال في حكمة الشعر :

والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة أو حكمة فهو تقطيع وأوزان

ومن الأمثال الدالة على تأثير المتنبي في أسلوب شوقي قوله مثلاً :

ولا تبال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

وشوقي يقول محتذياً أستاذه :

ولا تبال بكتز بعد مبسمه أغلى اليواقيت ما أعطيت والدرر

والمتنبي يقول في ابن العميد :

عربي لسانه فلسفي رأيه فارسية أعياده

وتلميذه شوقي يقول في الخديوي سعيد :

عربي زمانه عمري عهده فيه رحمة ووفاء

وانظر الى قول شوقي في حور دمر والهامة :

والحور في دمر أو حول هامتها حور كواشف عن ساق وولدان

تجد أنه في تشبيه الحور بالحور وقد كشفن عن ساق ينظر إلى قول مهار في الأشجار :

وعزت فصانت سوى ساقها وما إن أباحته إلا اضطرارا
تشمر عنه جلابيبها لعادته أن يخوض الغمارا

ثم انظر إلى تأثره بشعر المعري مثلاً :

لعلاك المذكرات عبيد خضع والمؤنثات إماء

وأبو العلاء يقول من قبله :

للملك المذكرات عبيد وكذاك المؤنثات إماء

وكذلك يقول شوقي :

ومهد المرء في أيدي الروافي كنعش المرء بين النائحات

مثلما قال المعري من قبله :

وشبيه صوت النعي إذا قيـــس بصوت البشير في كل ناد

وألفت نظرك بعد ذلك كله إلى قول شوقي وهو يصف الأطلال المندثرة والرسوم المبعثرة :

فلا تستبين سوى قرية أجدّ محاسنها ما اندثر

فتحسبه ينظر إلى قول أبي نؤاس في وصف الرسوم :

لمن دمنٌ تزداد حسن رسوم على طول ما أقوت وطيب نسيم

ولا نكران أن تأثر الشاعر بمن تقدمه من فحولة الشعر أمر طبيعي ، وقلما نجا منه أحد من رواض القوافي ، بيد أن من التأثر ما يبعث إليه التقليد والتقديس مما لا يدعو إليه مقتضى حال ، ولا يولده صدق عاطفة ، وهو ما يجب أن يتخلى منه الشعر المعبر عن الشعور ، ولولا مثل هذا التقليد الناشىء عن تقديسه لأساليب الجاهلية لجبّ عن نفسه غيبة من تهجم عليه من المجددين ، ولأضعف من حجتهم عليه وإن كان فيها كثير من روح التحامل ، فمما انتقد عليه قوله :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

قالوا : لقد كان بامكانه أن يشبب بريم مصري يرتع بين الجيزة وحلوان أو النيل والأهرام فيقول مثلاً :

ريم على المرج بين النيل والهرم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

ولكنه جرى تقليداً على أسلوب من سبقه من شعراء الجاهلية الذين كانوا يتغزلون بما يعرفون في جزيرة العرب وما يشاهدونه ويشعرون به ، وأما من ترسم آثارهم من التابعين فأية علاقة لهم بالبان والعلم وكاظمة وذي سلم ، والروحاء ودارة العلم ، وأي ذكرى تهيجهم لذكرها ووصفها ، فان قلنا لهم إن شوقي ما تشوق إلى البان والعلم — وهو في هذا الموطن صحيح — إلا لاتصال هذين الموضعين بمدينة النبي العربي المبين ، قالوا : فما باله إذن لا يترك مثل هذا التشبيب في قصيدة يقولها في مشروع ملنر :

أَنَّ عنان القلب واسلم به   من ربرب الرمل ومن سربه

وما باله يقول في قصيدة أخرى أنشدت في حفلة تكريم لمعتقلين يخرجون من السجن :

يحدجن بالحدق الحواسد دمية   كظباء وجرة مقلتين وجيدا

مقلداً في ذلك قول امرىء القيس وبينهما ما بينهما من القرون :

تصد وتبدي عن أسيل وتتقي   بناظرة من وحش وجرة مطفل

ألا سمعت ما قاله القاضي في وساطته : « ولا تلتفتن إلى ما يقوله المعنويون في وجرة وجاسم ، فانما يطلب به بعضهم الاغراب على بعض ، وقد رأيت ظباء جاسم فلم أرها إلا كغيرها من الظباء ، وسألت من لا أحصي من الأعراب عن وحش وجرة فلم يروا لها فضلاً عن وحش ضريَّة وغزلان بسيطة ، وقد يختلف خلق الظباء وألوانها باختلاف المنشأ والمرتع ، وأما العيون فقلّ أن تختلف لذلك » .

وهذا لا يمنع أن شوقياً كان واقفاً على أسرار العربية عارفاً بفرائدها الفصحى ، مميزاً بين معسولها ومرذولها ، وأنه كان لا يستعمل الوحشي الغريب إلا إذا عز وجود الإنسيّ القريب ولم يقم مقامه في دقة التعبير وفي وضوح الدلالة والاشارة ، وكثيرا ما تجيئه للغريب المهجور ضرورة القافية كالقنا المشتجر ، وأقلام الصعر ، والخيس الدثر أو ما هو أغرب من ذلك كحرضى وحضوضى والبوغاء بمعنى التراب والعماء بمعنى السحاب وهلم جرًّا ، ولعله لولا طول نفس القافية في طويلاته التي يختلف عدد الواحدة منهن ما بين مائة وثلاثمائة بيت تقريباً ، لولا ذلك لما اضطر إلى استعمال غريب القوافي المهجور ، وترك القريب الحبيب المشهور ، نعم إن من الموضوعات ما يلجىء الشاعر بطبيعته إلى الاسهاب ، وإنه ما زالت الصلة بالشعر القديم وثيقة العرى ، غير أن الخلود في الشعر بهذا العصر لا يكتب إلا للقصائر ، التي لا يلجأ فيها الشاعر إلى التمحل والضرائر ؛ على أن له من القصائر الخالدة لامتيازها بألفاظها المتخيرة ومعانيها العلوية

وعواطفها المتأججة ما يتغنى به العاشق الشاكي والصندوق الحاكي في الشوارع والمجامع .

وفي لغة شوقي مفردات عامية كان يتجوز في استعمالها إيثاراً لوضوح الدلالة ، وماذا كان عليه لو نقى لغته من أمثال طار بمعنى إطار الواردة في قوله يصف قرص الشمس طالعاً :

فسمت فكانت نصف طار ما بدا   حتى أناف فلاح طاراً أكبرا

إذ لم ترد طار في الفصحى بمعنى إطار الذي هو حلقة الشيء وما أحاط به ومنه إطار الدف والمنخل ، وإطار البيت كالمنطقة حوله ؛ ومنها فعل حرق بمعنى أضرم فيه النار إذ لم يرد متعدياً إلا بالهمزة ، وأما الثلاثي فقد ورد بمعنى آخر وهو حك بعض الأسنان ببعض من الغيظ والحنق نحو حرق عليه الارم ومنه قول الشاعر :

نبئت احماء سليمى انما   باتوا غضاباً يحرقون الأرّما

ويقال : حُرق الرجل مبنياً للمجهول فهو محروق اذا انفصلت حارقته وهي العصبة الجامعة بين رأس الفخذ والورك ؛ كما انه جاء بمعنى برد الحديد بالمبرد ، فالأفصح إذن أن يقال أحرق لا حرق كما يقال أغلق لا غلق ؛ ومن هذه الألفاظ العامية لفظة دهان بمعنى نقش في قوله :

صحب الزمان دهانها   حيناً عهيداً بعد حين

فالدهان جمع دهن ، وقد وردت في قوله تعالى : « فكانت وردة كالدهان » ، قال الفراء : شبهها في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه ؛ ويطلق الدهان على الجلد الأحمر ، فالدهان على ذلك لم يرد بمعنى النقش والطلاء Peinture ، إلا اذا اعتبرنا الدهان من قبيل المجاز المرسل لحلول الصبغ في الدهن وهو زيت الدهانين المعروف ، ولو قال : « صحب الزمان نقوشها » لاستقام الوزن ولأصاب شاكلة الفصحى .

ومنها لفظة المعية بمعنى الحاشية والبطانة في قوله :

قامت السراة به   والمعية النجب

فان البطانة تحل محل المعية ويستقيم الوزن معها ، والمعية من مصطلح النحو بمعنى المصاحبة ؛ وأما استعمالها بمعنى البطانة فمن المصطلحات التركية لا العربية ، وفي استعمالهـــا التباس ينافي التخصيص ولا حاجة في التعبير إليها .

بيد أن من الألفاظ العامية ما يحتاج إليها لعروبة مادتها ورشاقة صيغتها ، ولعدم ما يقوم مقامها كلفظة مرفع بمعنى كرنڤال ، فقد استعملها شوقي في قوله يخاطب النفس :

كم بنت فيه وكم خفيت كأنه ثوب الممثل أو لباس المرفع

وإذا نحن أبينا أن نستعملها فقـد حجرنا واسعاً وحملتنا الحاجة إلى استعمال « كرنڤال » كما أنا لو لم نستعمل جريدة لاضطررنا إلى استعمال « جورنال » .

هذا وقد امتاز بما وفق إليه من حسن استعمال الأعلام الأعجمية مع المحافظة على رنة الشعر الموسيقية ، فتسمعه في مطلع قصيدة « طوكيو » التي وصف بها نكبة اليابان بزلزالها يقول :

قف بطوكيو وطف على يوكوهامه وسل القريتين كيف القيامه

وتصغي إليه في قصيدة أخرى يخاطب اللورد كرومر :

هل من نداك على المدارس أنها تذر العلوم وتأخذ الفوتبولا

فتجد للفظة الأعجمية في هذا البيت مع بشاعتها حسن الشيء يحل محله ، ثم يذكر لك وزيرين انكليزيين ومدينة انكليزية في بيت واحد وهو :

واحمل بساقك ربطة في لندن واخلف هناك غراي أو كمبيلا

ومع أن الإكثار في الشعر من الألفاظ والأعلام الأعجمية الثقيلة مما ينافي لغة الشعر وسلاسته ، وهي أجمل حلاه ، وينافي رنته الموسيقية وهي نشوة طلاه ، نجد الشاعر بحسن تصرفه وتأتيه وتلطفه يكاد يعرب لنا تلك الطعطمانية حتى نسيغها ، من ذلك التلطف قوله :

أأم المالكين بني أمون ليهنك أنهم نزعوا أمونا

ولدت له المآمين الدواهي ولم تلدي له قط الأمينا

فقد أتبع البيت الأول المنتهي بأمون بالثاني المنتهي بالأمين ومن هذه القوافي التي أحكم وضعها قوله :

لك الأصل الذي نبتت عليه فروع المجد من « كرنارفونا »

خليليّ اهبطا الوادي وميلا إلى غرف الشموس الغاربينا

وخصا بالعمار وبالتحايا رفات المجد من « توتخمينا »

وأما قوله في وصف ينبوع « كوك صو » بالاستانة فهو من مائه أعذب وتحيته منه أطيب :

تحية شاعر يا ماء « ككسو » فليس سواك للأرواح أنس

وله من التعابير ما اختص بها ، أو أحياها وأذاعها بشعره كقوله في دمشقيته المشهورة :

و « للحرية الحمراء » باب بكل يد مضرجةٍ يدق

وأعاد « الحرية الحمراء » في قصيدة أخرى بقوله :

لا بد « للحرية الحمراء » من سلوى ترقد جرحها كالبلسم

وأورد هذا التعبير والحرية موصوفة بوصف آخر في قوله :

سلوا « الحرية الزهراء » عنا وعنكم هل أذاقتنا الوصالا

فهذا التعبير مما اقتبسه شوقي من أستاذه الأول أبي الطيب ، وله فضل إذاعته ، فقد قال المتنبي يصف الحدث بالحمراء لانصباغها بالدماء .

هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أيّ الساقيين الغمائم

ومن تعابيره الشوقية المبتدعة قوله : « العلم بدريّ » فانه نسب العلم إلى بدر مشيراً إلى الأثر القائل : « إن أهل بدر مغفور لهم هفواتهم » :

والعلم بدريّ أحل لأهله ما يصنعون

ومنها كليوباترة المكايد ، وإيزيس الندى ، وعيسى الشعور ، وعمرو

الأمور ، ولغته لأبي الهول بديدبان القدر أي حارسه ورقيبه ، وأمثالها كثيرة في شعره ، وآخر ما صنع من ذلك تلقيبه لصديقه حافظ بحافظ الفصحى .

ومن المفردات التي يظن أن شوقياً أول من استعملها ونشرها لفظة « مثال » أطلقها على تحات التماثيل وصناعته « المثالة » ولم تنتشر هذه الكلمة إلا بدافع الحاجة إليها ، ولا كتب لها البقاء إلا بمقتضى ناموس بقاء الأصلح ، ونحن أحوج ما نكون في هذا العصر إلى أمثال هذه المفردات المخصصة التي تعين على التدقيق في التعبير العربي ، وقد أحياها أو أذاعها شوقي باستعمالها ، واللغة تحيا بالاستعمال وتموت بالاهمال ، ومن أحق من الشاعر النابغة أو الكاتب البليغ بالأخذ بناصر اللغة بما يحييه أو يذيعه من مفرداتها .

وهذا لا يمنع اللغوي الضليع كشوقي أن يسجد في محراب اللغة سجدة السهو كقوله في أسواق الذهب يتحدث عن التزوج باثنتين : وإن التيس لو عقل ما اتخذ نعجتين ، فكيف يتزوج الفقير العاقل باثنتين ، والصواب أن يقول : ما اتخذ عنزتين ، إذ التيس ذكر المعزى لا الضأن الذي يطلق الكبش على ذكره والنعجة على انثاه .

ومن أبلغ من عني بلغة شوقي ونقدها في مصر محمد المويلحي ، وفي الكثير مما نقده ما يدل على ذوق سليم وملكة في الأدب قوية مثال ذلك قول شوقي :

وقطعة خد بينما هي جنة لعينيك يا رائي إذا هي نار

قال المويلحي : « ولو قال صفحة خد لكان التعبير أحسن وأجمل لأن القطعة بغير الخد أنسب » .

وتنفحت لغة شوقي ، ورقت عبارته وازداد شعره رصانة وانسجاماً ، وأين قوله أيام كان يخشب الشعر :

كم يا جماد قساوة كم هكذا أبداً جحود
تطوي إليك دجى الليا لي والدجى عنا يذود

من قوله أيام تنقيحه وتهذيبه :

الله في الخلق من صبٍّ ومن عانِ تفنى القلوب ويبقى قلبك الجاني
صوني جمالك عنا إننا بشر من التراب وهذا الحسن روحاني

ولئن قيل ان امرأ القيس قد سبق الى أشياء ابتدعها واستحسنها العرب واتبعه عليها الشعراء ، وعدوا منها استيقافه صحبه في الديار ، فان شوقي قد سبق معظم شعراء عصره في كثرة الاستيقاف وطلب القيام في مطالع قصائده كقوله مستوقفاً :

قف ناج اهرام الجلاد وناد هل من بناتك مجلس أو ناد
قف بالممالك وانظر دولة المال واذكر رجالاً أدالوها باجمال
قف بروما وشاهد الأمر واشهد ان للملك مالكاً سبحانه
قف على كنز بباريس دفين من فريد في المعاني وثمين
قفي يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا

ومما سأل به القيام وهو كالاستيقاف من أساليب تعبير شوقي ولغته الشعرية :

قم ناج (جلق) وانشد رسم من بانوا مشت على الرسم أحداث وأزمان
قم ناد (أنقرة) وقل يهنيك ملك بنيت على سيوف بنيك
قم في فم الدنيا وحيّ الأزهرا وانثر على سماع الزمان الجوهرا
قم سابق الساعة واسبق وعدها الأرض ضاقت عنك فاصدع غمدها
قم حيّ هذي النيرات حيّ الحسان الخيرات

وأما لغة مطالع قصائده فمنها الركيك بمعناه ومبناه كقوله مثلاً :

يا بارك الله في الدنيا بعباس وبارك الله في عمات عباس

ونحن إذا جارينا في هذا البيت من انتقد مطالع شوقي ، لا نجاريه في النقد على إطلاقه فان لشوقي من المطالع ما يعد من الروائع كقوله مثلاً :

ضمي قناعك يا سعاد أو ارفعي هذي المحاسن ما خلقن لبرقع !

رمضان ولّى هاتها يا ساقي مشتاقة تسعى الى مشتاق

قلب يذوب ومدمع يجري يا ليل هل خبر عن الفجر ؟

بالله يا نسمات النيل في السحر هل عند كن عن الأحباب من خبر

يا نائح الطلح أشباهٌ عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

وقد يستعين الانسان لتوضيح عبارته بالتشبيه ولا يستغني عنه أحد من العامة ولا الخاصة ، والأصل الذي يعتمد عليه فيه أن يشبه المتكلم المجهول بالمعلوم لدى المخاطب ، فاذا انعكست القضية خفي المقصود وهو المشبه على المشبه له ، وبذلك يكون التشبيه ركناً خطيراً من أركان البيان ، وعوناً مليباً المصور الواصف ، ولكن التشبيه قد خرج في عصور انحطاط البيان العربي عن محوره ، وبعد عن غايته ، وأصبح مطمح الشاعر ومسعى خياله أن يشبه شكلاً بشكل ولوناً بلون وطولاً بطول ، وإن لم يكن وجه الشبه واضح الملامح ، لأن المشبه لم يقصد في محاكاته تصويراً ولا تبييناً ، وإنما أراد تزويقاً وتحسيناً ، وبذلك لم يصبح التشبيه من أركان البيان بل أمسى من محسنات البديع اللفظية ، وقد انتبه الشاعر إلى ذلك فأتخذ كثيراً من شعره وشفاه من هذه العلة وهذا النوع من العيّ والحصر ، وإذا أردت مصداق ذلك فانظر مثلاً إلى ذلك التصوير البارع في التشبيه التالي :

بِنّا فلم نخلُ من رَوح يراوحنا من بر مصر وريحان يغادينا

كأم موسى على اسم الله تكفلنا وباسمه ذهبت في اليمّ تلقينا

ومصر كالكرم ذي الاحسان فاكهة لحاضرين وأكواب لبادينا

ومنها :

نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ولم يهن بيد التشتيت غالينا

ولا يحول لنا صبغ ولا خلق إذا تلوّن كالحرباء ثانينا

وأنعم النظر في تشبيهه للحمام الأسود المغرّد بالراهبات المرتلات في سود الجلابيب ، وتأمل ما في ذلك من جمال البيان ولطف المحاكاة :

بيض القلانس في سواد جلابب حلين بالأطواق والأوضاح

رتلن في أوراقهن ملاحناً كالراهبات صبيحة الافصاح !

يخطرن بين أرائك ومنابر في هيكل من سندس فياح

وإذا جردت بقوة مخيلتك ما في البيتين التاليين من صورة دقيقة واضحة ، شهدت بما للتشبيه الصادق من قوة التصوير وبلاغة التعبير :

وترى الفضاء كحائط من مرمر نضدت عليه بدائع الألواح

الغيم فيه كالنعام بدينة بركت وأخرى حلقت بجناح !

وجرت سواقٍ كالنوادب في القرى رعن الشجيّ بأنة ونواح

الشاكيات وما عرفن صبابة الباكيات بمدمع سحاح

من كل بادية الضلوع غليلة والماء في أحشائها ملواح

تبكي إذا ونيت، وتضحك إن هفت كاميس بين تنشط ورزاح

هي في السلاسل والغلول وجارها أعمى ينوء بنيره الفداح !

اللغة المجازية في شعر شوقي

لا نكران أن لغة الحقيقة في كلام أمير الشعراء هي لغة الشعر الرقيقة المنسجمة ، المنخلة الألفاظ ، المتقنة التركيب ، ومَن أحق منه بالاهتداء إلى كرائم الألفاظ ورقائق العبارات ، فقد آخى في شعره بين فصاحة اللفظ وبلاغة القول في سلك بيان ناصع ، ترافقه رنة موسيقية علوية أشبه شيء بالرنة البحترية ، وأما لغة شوقي المجازية فغالبة على بيانه ، وقلما خلت جملة أبيات منها ، والظاهر أن الاستعارة بأنواعها متغلبة على المجاز العقلي والكنايات في شعره ، ولأمرٍ ما ولعت العرب بالمجاز لما فيه من قوة التصوير وفخامة التعبير مع الايجاز ، ولما يحصل به للنفس من أريحية مما يدل على ميل بالعرب إلى اتساع الكلام . وإن التفنن في وجوه

التعبير نتيجة لازمة لقوة التصور والتفكير ، وقديماً كان الانسان إذا عجز في الكتابة عن التعبير بالرموز الحرفية يلجأ إلى رموز الصور مستعيناً بوضوح دلالتها ، فالتصوير الخطي والبياني من أقوى وسائل التعبير .

ومن مجازاته العقلية قوله في مطلع نهج البردة .

«ريم» على القاع بين البان والعلم	أحل سفك دمي في الأشهر الحرم
رمى القضاء بعيني «جؤذر» «أسداً»	ياساكن القاع أدرك ساكن الأجم

فالريم وهو الظبي الخالص بياضه والجؤذر وهو ولد البقرة الوحشية قد أطلقها على محبوبه مجازاً وأطلق الاسد على نفسه ، وكنى عن الغزال بساكن القاع وعن الأسد بساكن الأجم ؛ وفي هذين البيتين من فن البديع طباق بين قوله «أحل» وبين «الحرم» ، وهو من المحسنات التي يزين بها شوقي لغته كثيراً ، وبعد أربعة أبيات من هذا البيت بيتان في كل منها مطابقة وهما :

لقد أنلتك أذناً غير واعية	ورب «منتصت» والقلب في «صمم»
ياناعس الطرف لاذقت الهوى أبداً	«أسهرت» مضناك في حفظ الهوى «فنم»

استعاراته

أما الاستعارة المبنية على التشبيه فكأنها ما غلبت على لغة شوقي إلا لاعتقاده بأنها أبلغ من المجاز العقلي لما بين طرفي الاستعارة من المناسبة القوية والمبالغة التي تجيز لك أن تسمي الشيء بغير اسمه وتبلغ بها حد الاتحاد ، ولولا القرينة الدالة على مرادك لما انتبه المخاطب إلى غير المفهوم من العبارة ، وإنك لترى الاستعارات البليغة بأنواعها فيما سنورده على سبيل المثال :

القاتلات بأجفان بها سقم	وللمنية أسباب من السقم
الحاملات لواء الحسن مختلفاً	أشكاله وهو فرد غير منقسم

فقوله القاتلات بأجفان استعارة مكنية لحذف المشبه به وهو السيوف التي رمز اليها بشيء من لوازمها وهو القتل ، وفي قوله : الحاملات لواء الحسن استعارة مكنية أيضاً ولواء استعارة تخييلية والحمل ترشيحية ، ومع ذلك نجد في حمل لواء الحسن كناية جميلة عن نهاية الحسن فيه ، ومن الاستعارات التصريحية التبعية الكثيرة في شعره قوله :

دقات قلب المرء قائلة له	إن الحياة دقائق وثواني

فقد شبه في هذا البيت الحكيم الدلالة على الشيء بالقول بجامع الايضاح ، واشتق من القول قائلة بمعنى دالة ، والقرينة نسبة القول الى الدقات ، ومن استعاراته اللطيفة قوله :

رأس الحماية مقطوع فلا عدمت	كنانة الله حزماً يقطع الذنبا

* * *

يتمشى القضاء خلف نواهيـ	ـك حديد الأظفار يطلب صيدا
قصد الدهر منك ركن المعالي	ورمى طودها الذي كان طودا

* * *

قف ناج أهرام الجلال وناد	هل من بُناتك مجلس أو ناد

ففي مناجاة الاهرام استعارة وفي المجلس والنادي مجاز مرسل وبين ناد الامر ونادي الاسم جناس تام ، ووجود ذلك كله في بيت واحد دليل على ولع شوقي بالاستعارات والمحسنات .

كناياته

وقد أولع بالكناية لأنها من أبلغ ضروب المجاز بقوة تأكيدها وبيان تعبيرها ، بل جعلها البيانيون أبلغ من المجاز لأن دعوى الكناية مؤيدة بالبرهان ، ودعوى الاستعارة لا دليل عليها ، ومن كناياته البليغة وهي كثيرة قوله :

فدع كل طاغية للزمان فان الزمان « يقيم الصعر »

. . .

رفقاً بجفن كما أبكيته سال « العقيق » به وقام الماء

. . .

وبين الهوى والعدل للقلب موقف تخالك بين السيف « والنار » ثاويا

. . .

وبيان كما تجلى على الرسـ ـل تجلى على « رعاة الضال »

ومن جناساته التي شغف بها قوله :

و «سلا» مصر هل «سلا» القلب عنها أو «أسا» جرحه الزمان « المؤسي »
يا قصوراً نظرتها وهي « تقضي » فسكبت الدموع والحق « يقضى »

. . .

« زار » والحرب بين جفني ونومي قد أعد الدجى لها « أوزارا »
ما لرب الجمال « جار » على القلـ ـب كأنْ لم يكن له القلب « جارا »

ومن المطابقة في هذه القصيدة والطباق من محسنات البديع المعنوية قوله :

يا لياليَّ لم أجدك « طوالاً » بعد ليلى ولم أجدك « قصارا »
إن من يحمل الخطوب « كباراً » لا يبالي بحملهن « صغارا »

ومنها الشيء الكثير في شعره قوله :

وبي رشأ قد كان دنياي «حاضراً» فغادرني أشتاق دنياي « نائياً »

وفي هذا البيت « إيهام المطابقة » فان النائي ليس بضد الحاضر وإنما يوهم بلفظه أنه ضد ، ومثله قول دعبل :

لا تعجبي يا سلم من رجل « ضحك » المشيب برأسه «فبكى»

ومن مطابقته الرائعة ويسمى طباق المقابلة قوله :

وكن بالألحاظ «مرضى» «كليلة» فكانت «صحاحاً» في القلوب «مواضيا»

ومن محسنات شوقي المعنوية أيضاً « الاستخدام » أي ذكر لفظ بمعنى وإعادة ضمير عليه بمعنى آخر كقول البحتري :

فسقى الغضا والساكنيه وإن هم شبوه بين جوانح وقلوب

ومثله قول شوقي في إيزيس وهو القمر عند قدماء المصريين وإحدى معبوداتهم سميت باسمه :

تضيء على صفحات السما ء وتشرق في الأرض منها الحُجر

ومنها « الجمع مع التفريق » ، كقول البحتري :

ولما التقينا والنقا موعد لنا تعجب رائي الدر منا ولاقطه
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

ومثله قوله في مخاطبة الحمام :

أراك يمانياً ومصر خميلتي كلانا غريب نازح الدار موجع
هما اثنان : دان في التقرب آمن وناء على قرب الديار مروّع

ومن محسناته « التصريع » وهو استواء آخر جزء في صدر البيت وآخر جزء في عجزه في الوزن والروي والاعراب وهو أليق ما يكون بمطالع القصائد ، وفي وسطه ربما يمجه الذوق وينبو السمع عنه ، ومعظم مطالع شوقي مصرعة وقد تجده في أوساط قصائده أيضاً مع انسجام ورنة موسيقية يستعذبه الذوق ولا ينبو عنه السمع لأنه وليد الطبع كقوله :

لك أن تلوم ولي من الأعذار أن الهوى قدرٌ من الأقدار

ومن الترصيع المستحسن في الوسط قوله من قصيدته الأندلسية التي مطلعها :

اختلاف النهار والليل ينسي اذكرا لي الصبا وأيام أنسي

وفي وسطها يقول :

في ديار من الخلائف دُرّسٍ ومنار من الطوائف طُمّس

وكل ذلك ما كان ليحط من منزلة أمير الشعراء أو ليدق من خطره وهو القابض على ناصية البلاغة في شعره الخالد ، والملقن ما يحاوله والمحدث بما في نفسك ، وقد وقف على أسرار العربية وشغف بسواحرها

شغفاً جعله يتغنى بعربيته وعروبته ، غافلاً عن جنسيته وأرومته ، فمن تغنيه بعروبته قوله وفيه من محسنات البديع الاكتفاء :

تسأل أترابها مومئة بالعنم
أيّ فتى ذلكن العربي العلم ؟
قلن تجاهلته ذاك رب القلم
شاعر مصر الذي لو خفي النجم لم

ومن تغريده في عربيته وهيامه بمحاسنها الأدبية ومزاياها العلمية قوله :

إن للفصحى زماماً وبداً تجنب السهل وتقتاد الصعابا ؟
لغة الذكر لسان المجتبى كيف تعيا بالمنادين جوابا
كل عصر دارها إن صادفت منزلاً رحباً وأهلاً وجنابا
اثت بالعمران روضاً يانعاً وادعها تجرِ ينابيع عذابا
لا تجئها بالمتاع المقتنى سرقاً من كل قوم ونهابا
سل بها أندلساً هل قصرت دون مضمار العلى حين أهابا
غرست في كل ترب أعجم فزكت أصلاً كما طابت نصابا
ومشت مشيتها لم ترتكب غير رجليها ولم تحجل غرابا

ومنه قوله :

إن الذي ملأ اللغات محاسناً جعل الجمال وسره في الضاد

دمشق : تشرين الثاني سنة ١٩٣٢ .